Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 17:6 (1982

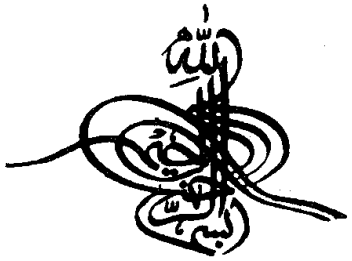

كلمة العـــدد

لايخفى على كل من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد وله أدنى بصيرة فى شئون العالم المعاصر الفكرية والثقافية أن المدنية الحديثة التى هى فى الحقيقة امتداد للحضارة الاوربية المسيحية الالحادية قد باءت بالفشل فشلا كاملا فى اقرار السلام السياسى و الاطمينان النفسى والروحى فى هذا العالم المضطرب الحائر على مفترق الطرق . فلا زال الصراع الفكرى بين الامم والشعوب يزداد كل يوم شدة وتهديدا للكيان البشرى فى هذا الكوكب الأرضى .

فالفلسفات الشيوعية والاشتراكية التى ظهرت على وجه الأرض بدعاوى عالية و بصرخات كبيرة لصالح الانسانية وفلاح البشرية جاءت بأكثر بكثير مما جاءت بها الرأسمالية المادية من مصائب ومتاعب وكوارث .

وهذا ، ولاشك ، يجعل الانسان المفكر المعاصر يميل عن جميع هذه الفلسفات الضالة والأنظمة الفاسدة والنظريات الفاشلة وبدأ يلفت نظره إلى فلسفة جديدة ونظام حى ونظرية شامله للحياة تحميه من نتائج ما اعتنقه من قبل من دين ونظام وفلسفة ، وتقيه من أن يقع فى هاوية الهلاك وتحفظ مبانى المدنية وجدران الحضارة و أسس الانسانية من أن تنقض .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

ومنذ أن استولى الغرب على العالم الاسلامى فكرا وسياسة وحضارة تسـلل الفكر الغربى اللادينى فى الكيان العقلى والثقافى الاسلامى . وأصبحت المبادئ الاسلامية الثابتة عرضة ـ بل أضحية ـ لما يسمى بالاستعراض النقدى أو الانتقاد العلمى . وكان من نتيجة هذا الواقع المر أن بدأت الفوضى الفكرية التى ذاقها الغرب واجتازها طوال القرون تتسرب الى البلاد الاسلامية تسربا هائلا . ومن المعلوم أن الفوضى الفكرية التى أتى بها الغرب وأوردها فى العالم الاسلامى تتبعها ردة فكرية واختلال فى النظام الفكرى والثقافى .

ولايخفى على كل من له علم وبصيرة فى تاريخ العلوم وتطور الثقافة فى أوربا أن الحضارة الغربية بجميع نواحيها وبجميع مافيها من العلوم والفنون والنهضة العلمية مطبعة بطابع علمانى خالص ومتشربة بروح المادية البحتة . „ وكانت هذه الحضارة بمعناها الواسع ـ كما استعرضها العلامة ابو الحسن الندوى ـ مجموعة عقائد ومناهج فكرية ، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية ، وعلوم طبيعية وعمرانية واجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الاوربية التى تزعمت هذه الحضارة فى رحلتها الطويلة ، وكانت مظهر تقدم العلم البشرى وعلوم الطبيعة ، وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون . فكانت مزيجا غريبا من أجزاء لايكون الحكم عليها واحدا متشابها . كانت مزيجا من السليم و السقيم ، ومن الصواب والخطاء فى النتائج والأحكام ، ومن البديهيات فى العلم التى لاتقبل الجدال والشك ، ومن التخمينات و التحكمات فى الاراء والدعاوى التى تقبل المناقشة الطويلة فى دور التجربة والاختبار والنشؤ والارتقاء ، ومما لايختص باقليم أو عنصر من علوم تطبيقية

وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الاوربية واثرت فيه البيئة الغربية وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الامم ، و مما له صلة قوية عميقة بالدين و العقائد ،و مما لاصلة له بالدين مطلقا . وذلک الذى زاد فى تعقد هذه المشكلة وخطورتها وأحرج مركز العالم الاسلامى » .

وكان كل ذلک بالاضافة إلى ماعليها هذه المدنية والحضارة من طبيعة متغيرة لاثبات لها ولاقرار . وتتجلى طبيعتها المتغيرة فى جميع نواحى حياتها ، فنراها فى آدابها واخلاقها ومظاهر حضارتها وازياءها. واصبحت ثقافتها متغيرة ـ تتغير دائما وتنقلب من صورة إلى صورة ، وذلک لأن الثقافة الغربية ليست لها مبادئ أبديه خالدة تثبت اقدامها فى عالم التغير المستمر وتقيها من الاخفاق فى علوم السياسة والاجتماع وتنظم حياتها الفردية والجماعية وتضبط امورها . فنرى الغرب تظهر فيه كل يوم نظرية جديدة وفكر جديد يضيف إلى فوضاه الفكرية ويزيد فيها بواعث جديدة لاختلالها وانهيارها .

★ ـ ★ ـ ★ ـ ★

علاقة الفرد بالدولة كانت ولاتزال من أهم قضايا الفكر السياسى التى شغلت أذهان المفكرين وقرائح العلماء فى جميع العصور والدهور. وعمل كل على شاكلته وقدّم حلا لهذه المسئلة حسبما أفتاه علمه وفكره . فمنح بعضهم الأسبقية والأفضلية للفرد وبعضهم للدولة أو المجتمع . زعم بعض المفكرين أن الدولة شر لامفر منه ، فلا نستطيع إلا أن نحصر نشاطاتها فى أصغر دائرة ممكنة ونحدد مجال عملها فى أضيق حدود . وهناک آخرون ينزلون الدولة منزلة الاله ، ويوسعون فى مجال نشاطاتها على جميع مجالات الحياة التى يمكن توسيعها فيها .

ويخضع هؤلاء المفكرون الفرد للدولة اخضاعا تاما ويزعمون أن ليس للفرد حق تجاه الدولة سوى ماتسمح به الدولة نفسها .

وبما أن الدولة هى مصدر لتلك الحقوق جميعا عند هؤلاء المفكرين ، فليس للأفراد فى رأيهم حقوق طبيعية أو فطرية يحترمها كل انسان ، وتحترمها الدولة ويحترمها المجتمع . ويعتقد كثير من علماء السياسة الغربيين ومن حذا حذوهم أن الطبيعة أو الفطرة لاتمنح أى حق لأى فرد ، فلايتمتع الأنسان بأى حق لمجرد كو نه انساناً ، و انما هو المجتمع السياسى المنظم الذى يمنحه حقوقه المدنية وحقوقه السياسية . وهذا المجتمع السياسى المنظم هو الذى يعطيه حريته ، وهو مصدر واجباته تجاه نفسه ، وتجاه أبناء مجتمعه ، وتجاه البشرية جمعاء.

ومن العجب العجاب أن يكون مجتمع من المجتمعات الانسانية الكثيرة مصدراً لواجبات المرء تجاه البشرية وتجاه الكون بأسره . فان المصدر لشئ لابد أن يكون أعم منه وأقوى . وأما المجتمع فانما هو جزء من الكيان البشرى الكبير ، فكيف يمكن أن يكون الجزء مصدرا للكل !

وتزداد مسئلة الحقوق المدنية والسياسية التى يجب أن يتمتع بها كل انسان بصفته انسانا وبمجرد كونه مواطنا لدولة من دول العالم خطورة واهمية بتطور الثقافة والمدنية والحضارة . فلما كانت الثقافة والحضارة فيمامضى لم تبلغ الى الحد الذى بلغته اليوم لم تكن هذه المسئلة من رؤوس المسائل واكبرها أهمية . ولعل السبب فى ذلك هو تغير مكانة الاخلاق فى المجتمع الحديث ، فكانت القيم الاخلاقية فى الماضى تحتل مكانة كبرى فى المجتمع الانسانى ، وكان لها أثقل الوزن فى ميزان المعاملات بين الناس ، سواء كانت هذه المعاملة بين

فرد وفرد أو بين طبقة وطبقة . حتى ونرى فى المجتمع الجاهلى قبل نزول القرآن الكريم أنه كان لدى العرب أهمية كبيرة للمثل الاخلاقية فى المعاملات بين الناس والمعاشرة فيما بينهم .

ولكن الآن فقد اختل المجتمع البشرى واضطربت المثل الاخلاقية ، وتهددت القيم الأدبية ، وأوشكت المدنية والحضارة على الانهيار، فاضطرت الامم الغربية الى أن تجمع الحقوق التى تعدها هذه الامم من الحقوق الاساسية للانسان بصفته انسانا وتدونها فى مجموعات ووثائق ، يجب اطاعتها واتباعها على الحكومات والدول ـ واخيرا حاولت هيئة الامم المتحدة أن تجمعها فى وثيقة خاصة تعرف باسم الاعلان العالمى لحقوق الانسان . واقرت الجمعية العامة للامم المتحدة هذه الوثيقة فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨م . وليست هذه الوثيقة الا اعتراف ورجوع الى ما أعلنه الاسلام من كرامة البشر وأن للانسان حقوقا ثابتة لايجوز لأحد أن يغتصبها .

ولو قارننا بين الحقوق التى يمنحها الاسلام للبشرية بأسرها والتى يعتبرها من مقاصد شريعته الغراء و بين „ المثل الأ على المشترك الذى ينبغى أن تصل اليه كافة الشعوب والأمم „ لاتضح لنا أن هذا المثل الأعلى لم يبلغ حتى الآن الى نصف ماجاءت به الشريعة الاسلامية قبل أربعة عشر قرنا ، بل قبل ذلك بكثير حين نادى دين البشرية كلها ـ دين الاسلام ـ بكرامة الانسان وخلافته يوم بزغ فجرالانسانية على هذه الكرة الأرضية . فهل من مدكر ؟

محمود احمد غازى

★★★★★